علاقة النّظم القرآني بتعلّم علوم العربيّة

الباحث :سالم شرابي /.دكتوراه
الجامعة : جامعة علي لونيسي البليدة -2-
البريد الالكتروني abouwidad1976@gmail.com

رقم الهاتف ..0698701560

تاريخ الاستلام: 2019/05/22 تاريخ القبول:2019/11/19

ملخّص البحث:

اعتبر الجرجانيّ النّظم القرآني أقوى الأدلّة على إعجاز القرآن الكريم، لأنّه المعجزة الخالدة إلى قيام السّاعة التي يعجز البشر مهما أوتوا من فصاحة إلى الإتيان ببعض من مثله، ولمّا كان هذا النّظم أفصح الكلام على الإطلاق كانت معرفة أسراره والاطّلاع على وجوه الإعجاز فيه سبيلا من سبل اكتساب ملكة اللّغة، على اختلاف مستويات اللغة الصّوتية والصرفية والتركيبية والدّلالية، لذلك كانت مداخلتي في بيان بعض وجوه الإعجاز النّظمي للقرآن وكيف يستفيد منها المتعلّم في الصّرف والنّحو والدّلالة أو فقه اللّغة.

الكلمات المفتاحية: النّظم القرآني- تعلّم – علوم العربية.

Abstract:

Al-Jarjani considered Quranic systems the strongest evidence of the miraculousness of the Holy Quran, because it is the eternal miracle to the hour when human beings can not, however loudly, come up with some of its ideals. And since these systems were the most explicit utterances, their knowledge of secrets and knowledge of the faces of miracles was a way of acquiring Queen of the language, at different levels of vocal, morphological, syntactic and semantic language, so my intervention in the statement of some aspects of the systemic miracles of the Koran and how to benefit the learner in exchange, grammar, semantics or philology.

Keywords: Quranic Systems - Learning - Arabic Science.

نصّ المقال

أ- مدخل:

يعدّ اكتساب الملكة اللّسانيّة أو اللغة من أهمّ أهداف المنظومات التّربويّة في العالم أجمع، لأنّ اللّغة هي الحلقة الأهمّ فيما يشهده العالم من تواصل، ومن رقيّ وتقدّم علميّ، ولأجل ذلك كان لزاما أن يبحث المختصّون في العالم في أفضل السبل وأنجعها لتحقيق هذه الملكة.

واللّغة العربيّة -باعتبارها واحدة من أهمّ لغات العالم قديما وحاضرا- واحدة من تلك اللّغات التي يسعى النّاس –

عربا وغير عرب- إلى إتقانها، بل إنّ كثيرا من الدّراسات ترى أنّ المستقبل لها رغم الضّعف الذي تعيشه في وقتنا الرّاهن، ولا أدلّ على ذلك من الإقبال الكبير لغير العرب على تعلمّها، فقد فتحت كثير من الجامعات في الدّول غير النّاطقة بالعربيّة فروعا أو كليّات للّغة العربيّة، وهو ما يعني زيادة انتشارها والإقبال عليها.

غير أنّ اكتساب هذه الملكة يحتاج إلى جهد وصبر كبيرين، لأنّ الملكة اللّسانية ليست مجرّد تعلّم ألفاظ ومعانيها، ولا هي القدرة على تأليف جمل وتراكيب بسيطة، بل تتعدّاها إلى مستوى الإبداع في التّعبير بها، وتذوّقها.

هذا الإبداع والتذوّق لا يمكن في عصرنا إلّا بالاطّلاع على نصوص اللّغة الفصيحة التي وجدت زمن الفصاحة، ودراسة هذه النّصوص والإفادة منها، بل وحفظ بعضها، ولعلّ أهمّ تلك النّصوص على الإطلاق النّص القرآنيّ، إذ هو كلام خالق اللّغات وموجدها، فلا يدانيه كلام، ولا يصل إلى فصاحته نصّ مهما أوتي من الفصاحة.

إنّ النّظم القرآنيّ له علاقة وثيقة باكتساب اللّغة العربيّة، فمنه تستمدّ اللّغة قوتها وصيرورتها، وقد كان أهمّ

روافد قواعدها، كما كان السّبب الأوّل في وجود كثير من علومها.

ولئن كان هذا هو بعض تأثير القرآن في اللّغة العربيّة، فإنّنا لا ننكر تأثير اللّغة في فهم القرآن وتدبّره، ومعرفة مقاصد الشّارع الحكيم فيه.

وغرضي من هذه المداخلة أن أذكر العلاقة القائمة بين النّظم القرآنيّ وبعض علوم العربيّة تأثيرا وتأثّرا، مستعينا في ذلك بأمثلة تطبيقيّة.

ب- علاقة القرآن باللغة:

إنّ العلاقة القائمة بين اللّغة العربيّة والقرآن الكريم علاقة وطيدة جدّا، ذلك أنّ الله تعالى قد أنزل آخر كتبه وأعظمها على خير أنبيائه محمدّ العربيّ ﷺ، وجعله بلسان عربيّ مبين، تكريما لهذه اللّغة، وزادها شرفا أن جعلها لغة أهل الجنّة، ولمّا كان الأمر كذلك استمدّت العربيّة شرفها من شرف القرآن الكريم، وديمومتها من ديمومته.

والحديث عن ملكة اكتساب اللّغة يجرّنا حتما إلى الكلام عن روافد هذه الملكة، وكيف يكتسبها المتعلّم، وقد ذكر ابن خلدون أنّ من أهمّ الوسائل المعينة على ذلك الدّربة على الكلام

بالعربيّة الفصيحة، وحفظ كلام الفصحاء، وقد عقد -في مقدمته المشهورة- فصلًا كاملًا عن أهمية الحفظ في تنمية ملكة اللّسان والكتابة، وهو الفصل الثّامن والأربعون تحت عنوان "**في أنّ حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ** "[1]، والملكة التي يعنيها ابن خلدون ليس مجرد الكلام بالفصحى، بل الملكة تعني الجودة والإبداع، فما من شكّ أنّ أعظم معين لتدريب اللّسان التّكلّم بالفصحى، وأيسر النّصوص الفصيحة حفظا هو القرآن الكريم، فقد يسّر الله تعالى حفظه لمن كانت همّته عالية في أكثر من موضع فقال عزّ وجلّ: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**﴾ [القمر: 17، 22، 32، 40]، وانظر إلى نظم الآية كيف أنّ الله تعالى أكّد أمر التّيسير بمؤكّدين اثنين (لام التوكيد)، و(قد) التي تفيد تحقّق حصول التيسير، وحصول مراد من يقبل على هذا القرآن بنيّة خالصة، ثمّ كيف أضاف التيسير إليه تشريفا، وتنبيها على أنّه يوفّق عبده لحفظه وفهمه وتدبّره، وفي قوله (للذّكر)، ولم يقل (للحفظ)، لأنّ الذّكر أعمّ إذ يشمل الحفظ، والفهم والتّدبر، واستنباط الأحكام منه، ومجرّد حفظه وإن كان خيرا إلّا أنّه دون من يفهمه ويتدبّره، وختم الآية باستفهام تحبيبا وتشويقا لعباده كي يقبلوا على هذا القرآن، ويضاف إلى هذا تكرار الآية في أربعة مواضع من السّورة. وما من شكّ أيضا أنّ أجود النّصوص وأعلاها

فصاحة، وأرقاها معنى ومبنى هو القرآن الكريم، لذلك لا يُشكّ البتّة في أنّ هذا النّظم الرّبانيّ أعظم معين على اكتساب الملكة اللّسانية، ولا تنال هذه الملكة بمجرّد قراءته وتلاوته وإنّما بالنّظر في نظمه، وتأمّل أسراره على كلّ مستويات اللّغة الصّوتية والصّرفيّة والدّلالية والتّركيبيّة.

1- علاقة النّظم القرآنيّ بالمستوى الصّوتيّ:

لا يخفى أنّ الإنسان وهو يتكلّم بلغة من اللّغات عليه أن يحرص كلّ الحرص على أن تكون مخارج حروفه وصفاتها متمايزة لفهم اللّفظ على صورته الصّوتية الصّحيحة خاصّة بين تلك الأصوات والحروف التي تتشابه، فعندنا في العربيّة مثلا: (الصّاد والسّين)، و(الظّاء، والضّاد، والذّال)، وفي مواضع تشتبه (الجيم مع الشّين) وهكذا.

لقد أعطى علماؤنا القدامى أهميّة بالغة للجانب الصّوتيّ فكان من أوّل ما يتعلّمه الذي يقرأ أو يحفظ القرآن مخارج الحروف وصفاتها كي يخرج الحرف من مخرجه الصّحيح، وبصفاته الصّحيحة من ترقيق وتفخيم واستطالة وجهر وهمس ...، ولئن كانت أوائل النّصوص التي تتناول هذا الميدان نظريّا قد وصلت إلينا عبر كتب النّحو ككتاب سيبويه، فإنّ الجانب التّطبيقيّ كان موجودا منذ زمن النّبي صلّى الله عليه وسلّم،

وعصر الصّحابة والتّابعين، ويدلّك على ذلك أنّ أصحاب القراءات المتواترة يمتدّ سند قراءتهم إلى الصّحابة رضوان الله عليهم.

وهذا الذي ذكرناه آنفا يوحي إلى قضيّة هامّة وهي أنّ القرآن كان هو الدّافع الأوّل لظهور الدراسات الصّوتيّة عند العرب، وهذه الدّراسات جزء هامّ في بناء الملكة اللّسانية، لأنّ صحّة النّطق عنصر من عناصر الفصاحة والإبانة، يدلّك على ذلك ما جاء في القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام من قوله تعالى:﴿ **وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا** ﴾[**القصص:34**] أحسن بيانا. قال ابن عباس: وكان في لسان موسى عُقدة، من قِبَل النّار، فذلك قول فرعون: ﴿**وَلَا يَكَادُ يُبِينُ**﴾ [الزخرف: 52]، وقوله: ﴿**وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي**﴾ [طه: 27].

والجانب الصّوتي أصبح في عصرنا ميدانا لدراسة النّصوص، فكم من الكتب والمذكرات والمقالات التي تناولت دراسة نصّ من النّصوص دراسة صوتيّة، غير أنّ هذه الدّراسة لم تكن وليدة عصرنا، فقد تناول علماؤنا المتقدّمون هذا الجانب، ومثال ذلك ما فعله ابن القيّم في بيان أسرار الحروف المقطّعة في القرآن الكريم، وربطه بين الجانب الصّوتي وإعجاز

النّظم القرآنيّ، فها هو يقول في سرّ ﴿**ألم**﴾: « تأمّل سرّ: ﴿**ألم**﴾ كيف اشتملت على هذه الحروف الثّلاثة فـ(الألف) إذا بُدئ بها أولا كانت (همزة) وهي **أوّل المخارج من أقصى الصّدر** و(اللّام) من **وسط مخارج الحروف، وهي أشدّ الحروف اعتمادا على اللّسان** و(الميم) آخر الحروف، **ومخرجها من الفم**، وهذه الثّلاثة هي أصول مخارج الحروف أعني **الحلق واللّسان والشّفتين**، وترتيب في التّنزيل من البداية إلى الوسط إلى النّهاية. فهذه الحروف معتمَد المخارج الثّلاثة التي تتفرّع منها **ستّة عشر مخرجا**، فيصير منها تسعة وعشرون حرفا عليها دار كلام الأمم الأولين والآخرين مع تضمّنها سرّا عجيبا وهو أنّ لـ(لألف) البداية، و(اللام) التّوسط، و(الميم) النّهاية. فاشتملت الأحرف الثّلاثة على البداية والنهاية، والواسطة بينهما، **وكلّ سورة استفتحت بهذه الأحرف الثّلاثة فهي مشتملة على بدء الخلق، ونهايته، وتوسّطه، فمشتملة على تخليق العالم وغايته، وعلى التّوسط بين البداية والنّهاية من التّشريع والأوامر**، فتأمّل ذلك في البقرة وآل عمران وتنزيل السّجدة وسورة الرّوم.

وتأمل اقتران (الطّاء بالسّين والهاء) في القرآن، فإنّ (الطّاء) جمعت من صفات الحروف **خمس صفات لم يجمعها غيرها وهي الجهر والشّدة والاستعلاء والإطباق**[2]، و(السّين) **مهموس، رخو، مستفل، صفيري، منفتح**، فلا يمكن أن يجمع

إلى (الطّاء) حرف يقابلها كـ(السّين والهاء)، فذكر الحرفين اللّذين جمعا صفات الحروف.

وتأمّل السّور التي اشتملت على الحروف المفردة كيف تجد السّورة مبنية على كلمة ذلك الحرف فمن ذلك (ق)، والسّورة مبنيّة على الكلمات القافيّة من ذكر القرآن، وذكر الخلق، وتكرير القول، ومراجعته مرارا، والقرب من ابن آدم، وتلقي الملكين قول العبد، وذكر الرّقيب، وذكر السّائق، والقرين، والإلقاء في جهنم، والتّقدم بالوعيد، وذكر المتّقين، وذكر القلب، والقرون، والتّنقيب في البلاد، وذكر القيل مرّتين، وتشقّق الأرض، وإلقاء الرّواسي فيها، وبسَوق النّخل والرّزق، وذكر القوم، وحقوق الوعيد، ولو لم يكن إلّا تكرار القول والمحاورة وسر آخر وهو أنّ كلّ معاني هذه السّورة مناسبة لما في حرف (القاف) من الشّدة والجهر، والعلوّ، والانفتاح.» [3]

2- علاقة النظم القرآني بالمستوى الإفراديّ:

وأقصد بالإفرادي كلّ ما يتّصل بالمفردة، والعلوم التي تتناولها كعلم الصّرف، وفقه اللغة، والمعاجم، والدّلالة، وإن كانت علم الدّلالة يهتمّ بدلالة المفردة وفق ما ترد فيه من تركيب لكنّه علم يبحث في المقام الأوّل في المفردة ومدولاتها.

أ- **النّظم القرآنيّ وعلم الصّرف**: إنّ من مظاهر إعجاز النّظم القرآني الإعجاز الصّرفيّ، وأقصد به الإعجاز الحاصل من جهة المفردة القرآنيّة، فإنّك تجد للكلمة بصيغتها التي وردت عليه في الآية من الوقع والأثر ما لا تجده لو أنّك غيّرت صيغتها أو وزنها، ويدخل في ذلك ما تراه في القرآن الكريم من تغيير لصيغة الكلمة بين آية وآية أخرى مشابهة لها، كالإفراد والتّثنية والجمع، والتّذكير والتّأنيث، والحذف والذكر، ومجيء المفردة على الأصل، ومجيئها بالإبدال، واستعمال الفعل في موضع والاسم في موضع آخر، والتّعريف والتّنكير...فـ« لا شكّ أنّ كلّ مفردة وضعت وضعا فنيّا مقصودا في مكانها المناسب، وإنّ الحذف من المفردة مقصود، كما أنّ الذّكر مقصود، وإنّ الإبدال مقصود، كما أنّ الأصل مقصود، وكلّ تغيير في المفردة أو إقرار على الأصل مقصود له غرضه.» (4)

ولنضرب على ذلك أمثلة :

قال تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أن يَظْهَرُوه وَمَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ [الكهف:97]، لِمَ قال في الأوّل: (**اسطاعوا**) وفي الموضع الثّاني: (**استطاعوا**)؟

قالوا: إنّ (اسطاعوا) من جهة اللّفظ أقصر من (استطاعوا) وقد ناسب هذا الاختصار فعلهم، فإنّ عُلُوّهم وصعودهم السّدّ الذي صنعه ذو القرنين أهون وأقصر في المدّة

من نقبه، فناسب أن حذف من الحدث الخفيف، فقال :(فما اسطاعوا)، بخلاف الفعل الشّاق الطّويل وهو النّقب فإنّه لم يحذف منه شيء، بل جاء على أطول صيغه (وما استطاعوا له نقبا). (5)

ومثله أيضا قوله تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [سورة الملك: 19]. لِمَ عَطف الفعل على الاسم، ولم يعطف اسما على الاسم؟

يقول الزّمخشريّ: « فإن قلت: لِمَ قيل: **ويقبضن**، ولم يقل: **وقابضات**؟ قلت: لأنّ الأصل في الطّيران هو صفُّ الأجنحة؛ لأنّ الطّيران في الهواء كالسّباحة في الماء، والأصل في السّباحة مدّ الأطراف وبسطها، وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التّحرك بما هو طارئ غير أصل بلفظ الفعل، على معنى أنهنّ صافات، ويكون منهن القبض كما يكون من السّابح.»(6)، أراد أنّه جعل للغالب لفظ الأصل وهو الاسم، وللطّارئ لفظ الفعل وهو فرع عن الاسم.

وقد ذكر ابن القيّم في هذا الموضع نكتة دقيقة في الفرق بين عطف الفعل على الاسم المشتق منه، وعطفه على المصدر فقال:« فإن قيل: فلم جاز عطف الفعل على الاسم الحامل للضّمير ولم يعطف الاسم على الفعل فتقول: (**مررت برجل يقعد وقائم**) كما تقول: (**قائم ويقعد**). قيل: هذا سؤال قويّ

ولما رأى بعض النّحاة أنّه لا فرق بينهما أجاز ذلك وهو الزّجاج فإنّه أجازه في معاني القرآن، والصّحيح أنّه قبيح، والفرق بينهما أنّك إذا عطفت الفعل على الاسم المشتقّ منه رددت الفرع إلى الأصل، لأنّ الاسم أصل الفعل، والفعل متفرع عنه، فجاز عطف الفعل عليه لأنّه ثان، والثّواني فروع على الأوائل، وإذا عطفت الاسم على الفعل كنت قد رددت الأصل فرعا وجعلته ثانيا وهو أحق بأن يكون مقدَّما لأصالته.

وسر المسألة: أنّ عطف الفعل على الاسم في مثل قوله: ﴿**صَافّاتٍ وَيَقْبِضْنَ**﴾، و(**مررت برجل قائم ويقعد**): أنّ الاسم مُعتمِد على ما قبله، وإذا كان اسم الفاعل معتمدا عَمِلَ عَمَلَ الفعل، وجرى مجراه، والاعتماد: أن يكون نعتا أو خبرا أو حالا، والذي بعد (الواو) ليس بمعتمد، فلو عكست المسألة فقلت: (**يصففن وقابضات**)، و(**يقوم وقاعد**) قَبُحَ، لأنّ ما بعد (الواو) اسمٌ محضٌ وليس بمعتمد فيجري مجرى الفعل.»[7]

فانظر كيف ساهم هذا النّظم القرآنيّ في التّعريج على مسائل صرفيّة ونحويّة، إضافة إلى فهم أسرار التّعابير القرآنيّة، لتدرك من خلالها كيف تضع المفردة في موضعها على الصّيغة التي ينبغي أن تكون عليها في ذلك الموضع.

ب- **النّظم القرآني والمعجميّة:** وهذا لا يحتاج إلى كثير بيان فكتب التّفسير ملأى بالتّعاريف اللّغويّة لألفاظ القرآن

الكريم، وقد نال الحظّ الأوفر الغريب منها فألّفت فيه مؤلّفات عديدة كلّها في بيان غريب القرآن الكريم، والسّؤال عن معاني ألفاظ القرآن الكريم من زمن الصّحابة، وخير دليل على ذلك سؤالات نافع بن الأزرق لابن عبّاس ﷺ.

ولا شكّ في أنّ معرفة معاني ألفاظ القرآن الكريم زاد وأعظم به من زاد في اللّغة، لأنّ الألفاظ هي المادّة الخام التي تبنى عليها اللّغة، ولذلك ألّفت فيها المعاجم والقواميس.

يضاف إلى هذا أنّ أدراك معاني الألفاظ يعطي المتكلّم باللّغة القدرة على اختيار اللّفظ المناسب في كلامه، وقد حرص الجرجانيّ أن يبرز أنّ فصاحة اللّفظة وحسن موقعها إنّما تكون في علاقاتها بما قبلها وما بعدها، بأن تلاقي وتناسب كلّ مفردة من الكلام صاحبتها وجارتها[8]، وقد أشار غير واحد من العلماء إلى ضرورة تناسب اللفظ مع المعنى.[9]

إنّ المفردة القرآنيّة تمثّل أعلى قمّة هذا التلاقي والتناسب الحاصل بين مفردات التّركيب، فالمتأمّل في هذا النّظم القرآنيّ يدرك بما لا يدع مجالا للشّك في أنّ هذا الموضع لا يناسبه إلّا هذه المفردة حتّى وإن تشابهت الآيات، وهذا أحد أوجه الإعجاز في نظم القرآن خاصّة في الآيات المتشابهات، وسنذكر ما يشير إلى هذا في آخر المقال.

ت- النّظم القرآنيّ وفقه اللّغة وعلم الدّلالة:

إنّ النّص القرآنيّ باعتباره نصّا لغويّا هو نصّ يحمل في طيّاته أغلب مباحث فقه اللّغة، فقد اشتمل على مباحث الغريب والمعرّب، والمترادف والتّضاد، والمشترك اللّفظيّ، وغيرها من مباحث فقه اللّغة، كما اشتمل أيضا على مباحث علم الدّلالة كأنواع الدّلالات خاصّة اللّغويّة منها، ودلالة السّياق، ودلالة المفهوم والمنطوق، ودلالة المطابقة، واللّزوم، ودلالة التّضمن، ودلالات الألفاظ كالمجمل والمبيّن، والخاصّ، والعامّ، والمطلق والمقيّد...

والمتأمّل في كتب فقه اللّغة وعلم الدّلالة يجدها غير مستغنيّة عن الاستشهاد أو التّمثيل بالقرآن الكريم، بل لقد أُلّفت قديما وحديثا كتب مستقلّة تعنى ببعض مباحث هذين العلمين في القرآن الكريم ككتب غريب القرآن، وكتب الوجوه والنّظائر في القرآن الكريم، ودلالات السّيّاق فيه، وهذا يدلّ على أنّ القرآن الكريم مادّة تنبض بالعطاء في مختلف العلوم.

ولعلّ ممّا يساعد المتعلّم في فهم هذه العلوم هو ربطها بأسرار النّظم القرآنيّ، ففي باب المشترك اللّفظيّ يمكن أن نمثّل لذلك بعشرات الأمثلة من القرآن الكريم مع بيان الأسرار في استعمال اللّفظ في كلّ موضع منها.

والحقيقة أنّ مباحث الدّلالة متضمّنة في بيان إعجاز النّظم القرآنيّ إفرادا وتركيبا، وأساليب من تقديم وتأخير،

وحـــذف وذكـــر، وإفـــراد وتثنيـــة وجمـــع، وتعريـــف وتنكيـــر...لأنّ بيـــان أســـرار الـــنّظم هـــو بيـــان لوجـــوه الـــدّلالات التـــي تحملهـــا هـــذه الـــنّظم، والفـــروق الواقعـــة بـــين نظـــم ونظـــم بـــدءًا مـــن دلالات الألفـــاظ إلـــى دلالة التّركيب والسيّاق.

3- علاقة النّظم القرآنيّ بالمستوى التّركيبيّ:

المقصـــود بالمســـتوى التّركيبـــيّ العلـــوم التـــي تهـــتمّ بالتّركيـــب كعلـــم النّحـــو والبلاغـــة، وإنّمـــا جمعـــت بـــين المســـتويين لأنّ تنـــاول المفـــردة القرآنيّـــة تُتَنـــاول ضـــمن ســـياقها التّركيبـــيّ، ولأنّ كـــلّ مفـــردة فـــي القـــرآن قـــد وضـــعت فـــي موضـــعها اللّائـــق بهـــا، ولـــو أنّـــك وضـــعت بدلها غيرها لما كان لها نفس المعنى ونفس الجمال، والوقع.

وتنـــاول إعجـــاز نظـــم القـــرآن الكـــريم يكـــون علـــى مســـتوى المفـــردة والتّركيـــب فـــي الوقـــت ذاتـــه، لأنّـــك تتعامـــل مـــع نـــصّ لا مـــع مفـــردة خـــارج ســـياقها، وهـــذه الفكـــرة هـــي التـــي بنـــى عليهـــا الجرجـــانيّ نظريّتـــه فـــي الـــنّظم، إذ غايتـــه الأولـــى هـــو بيـــان وجـــه إعجـــاز القـــرآن وأنّـــه معجـــز مـــن جهـــة نظمـــه، ومـــن الجهـــة الأخـــرى حـــاول أن يخـــرج بعـــض العلـــوم السّـــائدة عـــن الجفـــاف الـــذي يجـــده المـــتعلّم فيهـــا كعلـــم النّحـــو والصّـــرف، فـــأراد أن يجعـــل هـــذين العلمـــين ممـــزوجين بالبلاغـــة أو بأســـرار الـــنّظم ليتـــذوّق المـــتعلّم تلـــك الفـــروق الحاصـــلة بـــين نظـــم ونظـــم، وهـــي فائـــدة جليلـــة يـــدرك مـــن خلالهـــا المـــتعلّم قيمـــة اللّغـــة، وقيمـــة مـــا يتعلّمـــه منهـــا، تطبيقـــا، وفهمـــا، فهـــو يـــدرك علـــى

مستوى المفردة معناها المعجميّ ودلالاتها في سياقات مختلفة، وما يتّصل بالمفردة من مباحث فقه اللّغة المترادف والمشترك اللّفظيّ، والتّضاد، وما يتّصل بعلم الصّرف من تصرّف للأفعال، والأسماء، وأسرار ورود الكلمة على صيغة معيّنة في موضع وتغيّر الصّيغة في موضع آخر، وهكذا.

وعلى مستوى التّركيب يدرك أنماط التّراكيب المختلفة مصحوبة بأسرارها البلاغيّة كأسرار التّقديم والتّأخير، والذّكر والحذف، والوصل والفصل، والحقيقة والمجاز ...، كما يكسبه النّظر في هذا النّظم التّذوق الجماليّ للّغة، وهو من أهمّ أهداف الملكة اللّغويّة.

إنّ النّصّ القرآنيّ نصّ ثريّ تتعدّد وجوه الاستفادة منه على عكس الأمثلة المصنوعة في تدريس موضوع من المواضيع، فهو مثال لنحو النّص، وللسانيات النصّ، وللمقاربة التي تعتمده منظومة التعليم كالمقاربة النّصّيّة التي تنطلق من النّصّ لبناء تعلّمات متعدّدة، والمقاربة بالكفاءات التي تعتمد على دمج كفاءات متعدّدة لحلّ إشكاليّة محدّدة، وفي مجال اكتساب ملكة اللّغة فلا أفضل من النّص القرآنيّ في بناء هذه الملكة بما حوته ألفاظه وتراكيبه من أنماط بديعة، ودلالات عديدة، وأسرار توصل متعلّمها والمتمعنّ فيها إلى إدراك أسرار

اللّغة، وقبله أسرار التّعبير القرآنيّ، ثمّ تذوّق النّصوص وإدراك جمالها، ومن ثمّ القدرة على تأليف نصوص وتراكيب فصيحة، والتّمييز بين النّصوص وبتاء أحكام نقديّة صائبة، وحينئذ ندرك أنّ هذا النّصّ القرآنيّ يغطّي حاجات المتعلّم من الممارسة الصّحيحة والتّعبير المطابق لمقتضى الحال، والحكم على تعابير الغير، وتذوّقها، وهو ما يعني بناء الملكة اللسانيّة.

أقول إنّ النّظم القرآنيّ مادّة ثريّة، لا تنضب ولا تزول فكلّما تأمّله المرء مرّة بعد مرّة ظهرت له من الأسرار والعجائب ما يحيّر العقول، ويأخذ الألباب، ولو أنّ الجهود انصبّت عليه لتستخرج من ما يستعين به المتعلّم على اكتساب الملكة لأغناه عمّا سواه، ونحن لا ندعو إلى عدم النّظر في كلام العرب شعرا ونثرا، ولا عدم الاعتناء بالعلوم اللّغويّة المعاصرة، ولكنّ القرآن أنيس المتعلّمين من بدايات مراحل تعلّمهم، وفهمه مفتاح لفهم ما دونه.

وقبل أن أختم هذا المقال أحببت أن أقدّم مثالا تطبيقيّا على ما قدّمت من خلال جهد لأحد العلماء المتقدّمين – وهو ابن القيّم- في كلامه على أعظم سور القرآن الكريم فاتحة الكتاب وهي من السّور القصار، لتدرك عظم الأسرار التي أودعها الله تعالى في كتابه، ولتكون مقياسا لما يمكن أن يكون أثرا

للنّظم القرآنيّ في علوم العربيّة، وأحببت أن أقتصر على أهمّ ما أورده ابن القيّم من أسئلة حول نظم هذه السّورة دون التّطرّق للجواب لعدم كفاية مثل هذا المقال بعرض الجواب، واقتصاري على المسائل فقط تنبيه على إعمال الفكر، ودفعه للبحث في أسرار النّظم القرآنيّ.

لقد أورد ابن القيّم وهو يتكلّم عن هذه السّورة مسائل عديدة ترتبط بعلوم لغويّة مختلفة كالصّرف والنّحو والدّلالة والبلاغة، وفقه اللّغة، والتّصوير البياني، وأنا ذاكر لك أغلب هذه المسائل[10]:

الأولى: هل الاسم هو المسمّى؟

الثّانية: هل اسم (**الله**) مشتقّ أم غير مشتقّ؟ وإذا كان مشتقّا فمن أين اشتقاقه؟

الثّالثة: هل (**الرّحمن**) اسم علم أم وصف؟

الرّابعة: ما الفرق بين (**الرّحمن**) و(**الرّحيم**)؟ وما الفائدة في الجمع بين هذين الوصفين؟

الخامسة: ما فائدة العامل في الجارّ والمجرور ﴿**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ [الفاتحة:01]؟

السّادسة: لَمَ جاء لفظ ﴿**الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ [الفاتحة:06] مفردا؟

السّابعة: لِمَ قدّم العبادة (**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**) على الاستعانة ﴿**إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾[الفاتحة:05]؟

الثّامنة: لِمَ قدّم المعبود والمستعان به على الفعلين؟

التّاسعة: ما فائدة البدل ﴿ **صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِم**﴾[الفاتحة:07] في الدّعاء، والدّاعي مخاطب لمن لا يحتاج إلى البيان والبدل القصد به بيان الاسم الأوّل؟

العاشرة: ما فائدة تعريف ﴿**الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ باللّام وهلّا أخبر عنه بمجرد اللّفظ دونها كما قال: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾[الشورى:52].

الحادية عشر: ما معنى (**الصِّرَاطَ**) ومن أيّ شيء اشتقاقه، ولمَ جاء على وزن فِعَال، ولمَ ذكر في أكثر المواضع في القرآن الكريم بهذا اللّفظ، وفي سورة الأحقاف ذكر بلفظ الطّريق فقال: ﴿**يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾[الأحقاف:30].

الثّانية عشر: ما الحكمة في إضافته إلى قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾ بهذا اللّفظ، ولم يذكرهم بخصوصهم

فيقول: صراط النّبيين والصّديقين، فلم عَدَلَ إلى لفظ المبهَم دون المفسَّر؟

الثّالثة عشر: ما الحكمة في التّعبير عنهم بلفظ (**الذي**) مع صلتها دون أن يقال (**المنعم عليهم**) وهو أخصر كما قال: ﴿**الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ**﴾ وما الفرق؟

الرّابعة عشر: لمَ فرَّق بين (**المنعم عليهم**) و﴿**المغضوب عليهم**﴾ فقال في أهل النّعمة ﴿**الذين أنعمت**﴾ وفي أهل الغضب المغضوب بحذف الفاعل.

الخامسة عشر: لم قال: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ فعدّى الفعل بنفسه ولم يعده بـ(إلى) كما قال تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ [الشورى:52]وقال تعالى: ﴿**وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾[الأنعام:87]؟

السّادسة عشر: أنّ قوله تعالى: {﴿**أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ**﴾ [الفاتحة:07] يقتضي أنّ نعمته مختصّة بالأوَّلِيْن دون المغضوب عليهم ولا الضّالين وهذا حجّة لمن ذهب إلى أنّه لا نعمة له على كافر فهل هذا استدلال صحيح أم لا ؟

السّابعة عشر: أن يقال لمَ وصفهم بلفظ (غير) وهلّا قال تعالى: (**لا المغضوب عليهم**) كما قال: ﴿**ولا الضّالين**﴾، وهذا كما تقول: مررت بزيد لا عمرو وبالعاقل لا الأحمق.

الثّامنة عشر: كيف جرت (**غير**) صفة على الموصوف، وهي لا تتعرف بالإضافة وليس المحلّ محلّ عطف بيان إذ بابه الإعلام، ولا محلّ لذلك إذ المقصود في باب البدل هو الثّاني، والأوّل توطئة وفي باب الصّفات المقصود الأوّلُ، والثّاني بيان، وهذا شأن هذا الموضع، فإنّ المقصود ذكر المنعم عليهم، ووصفهم بمغايرتهم معنى الغضب والضلال.

التّاسعة عشرة: إذا ثبت ذلك في البدل فالصّراط المستقيم مقصود الإخبار عنه بذلك، وليس في نية الطّرح، فكيف جاء صراط الذين أنعمت عليهم بدلا منه وما فائدة البدل هنا.

العشرون: ما وجه هذا التّقسيم والاختصاص، وكلّ من الطّائفتين ضالّ مغضوب عليه.

الواحدة والعشرون: لمَ قَدَّمَ المغضوب عليهم في اللّفظ على الضّالين.

الثّانيـــة والعشـــرون: لـــمَ أتـــى فـــي أهـــل الغضـــب بصـــيغة (**مَفْعُـــول**) المـــأخوذة مـــن (**فُعِـــلَ**) ولـــمْ يـــأتِ فـــي أهـــل الضّـــلال بـــذلك فيقـــال (المـــُضلِّين) بـــل أتـــى فـــيهم بصـــيغة (**فَاعِـــل**) المـــأخوذة مـــن (**فَعَلَ**).

الثّالثـــة والعشـــرون: مـــا فائـــدة العطـــف بـــ (لا) هنـــا ولـــو قيـــل: (**المغضوب عليهم والضّالين**) لم يختل الكلام وكان أوجز.

الرّابعـــة والعشـــرون: إذ قـــد عطـــف بهـــا فيـــأتي العطـــف بهـــا مـــع (الـــواو) للمنفـــيّ نحـــو: (**مـــا قـــام زيـــد ولا عمـــرو**)، وكقولـــه تعـــالى: ﴿**لَـــيْسَ عَلَـــى الضُّـــعَفَاءِ وَلا عَلَـــى الْمَرْضَـــى وَلا عَلَـــى الَّـــذِينَ لا يَجِـــدُونَ مَـــا يُنْفِقُـــونَ حَـــرَجٌ**﴾[التوبـــة:91] إلـــى قولـــه تعـــالى: ﴿**وَلا عَلَـــى الَّـــذِينَ إِذَا مَـــا أَتَـــوْكَ لِـــتَحْمِلَهُمْ**﴾﴾[التوبـــة:92] ، وأمّـــا بـــدون (الـــواو) فبابهـــا الإيجاب نحو: (**مررت بزيد لا عمرو**.)

الخامســـة والعشـــرون: هـــل الهدايـــة هنـــا هدايـــة التّعريـــف والبيان أو هداية التّوفيق والإلهام.

السّادســـة والعشـــرون: مـــا فائـــدة الإتيـــان بضـــمير الجمـــع فـــي: (**اهـــدنا**)، والـــدّاعي يســـأل ربـــه لنفســـه فـــي الصّـــلاة وخارجهـــا ولا يليـــق به ضمير الجمع ولهذا يقول: (**رب اغفرلي وارحمني وتب عليّ**)؟

السّابعة والعشرون: ما حقيقة الصّراط المستقيم الذي يتصوّره العبد وقت سؤاله؟

وأنت تتأمّل كلّ هذه المسائل في آيات معدودات يبهرك بديع النّظم القرآنيّ قبل أن تسمع جواب هذه المسائل، فإذا وقفت على الأجوبة زاد انبهارك بما احتواه من أسرار، وأدركت أيضا ما يمكن أن يفيده النّاظر فيه من مسائل تتّصل بعلوم مختلفة، وأنّ الفقه في القرآن يفضي بك إلى الفقه في علوم أخرى أنت بحاجة إليها لاكتساب الملكة اللّغويّة.

الهوامش:

(1) - **المقدّمة**، عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، دار البلخي، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى: (1425 هـ - 2005م): 1/ 386.

(2) - ذكر ابن القيّم أربع صفات للطّاء، والخامسة هي القلقلة.

(3) - **بدائع الفوائد**، ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن محمد العمران، دار الفوائد، المملكة العربية السعودية، 1119-1121.

(4) - **بلاغة الكلمة في التعبير القرآني**، فاضل صالح السمارائي، شركة العتق لصناعة الكتاب، القاهرة، جمهورية مصر العربية، الطبعة الثانية: (1427هـ-2006م)، ص:4.

[5] - ينظر المرجع نفسه، ص:9.

[6] - **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله الزمخشري، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة: 1407 هـ، 581/4.

[7] - بدائع الفوائد:469.

[8] - **دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني**، تحقيق: محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني، بجدة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة: (1413هـ - 1992م)، ص: 45، 50.

[9] - ينظر: **البيان والتبيين**، أبو بحر الجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، طبعة:1423 هـ:136/1، **والوساطة بين المتنبي وخصومه**، أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، مكتبة الحلبي، القاهرة، مصر، ص:24، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد ، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة .القاهرة، :164/1، **تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن**، لابن أبي الأصبع العدواني، تحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، ص:194، البلاغة القرآنية في الآيات المتشابهات من خلال كتاب (ملاك التأويل) لابن الزبير الغرناطي، 82.

[10] - ينظر كلام ابن القيم عن الفاتحة في **بدائع التفسير الجامع لما فسره الامام ابن القيم الجوزية**، جمع: يسري السيد أحمد، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: (1427هـ)، 1/ 24-89.